الفصل الثالث

الشِّعْر السياسي

obeikandl.com

obeikandl.com

(الشِّعر السياسي) لون من ألوان الشعر، يُعدّ اقترافه في مجتمعاتنا من «الكبائر» أوْ من «المُهلِكات» ويصنِّفه فقهاء السلاطين ضمن المحرمات، أوْ المحظورات في أحسن أحواله .. وقد أوْدَى بحياة كثير من أصحابه ومن والاهم أوْ دعا بدعوتهم .. فكمْ من الشعراء الذين أُودِعوا الزنازين من أجله؟ وكمْ من الرءوس التي فُصِلتْ عن أجسادها بسبب اقترافه؟ وكمْ من المبدعين الذين أُخرِجوا من ديارهم، وشُرِّدوا من أوطانهم بتهمة «تسييس» الشِّعر؟ وكمْ من أطنان الشّعر السياسي التي صُودِرتْ أوْ أُحرِقت؟ فضلاً عن الشِّعر الذي لمْ يخرج من بطون الشّعراء .. ولمْ يرَ نوراً ولا ناراً!

قبل أن نُمِيط اللثام عن ماهية هذا اللون الشّعري، وطبيعته، وتاريخه، وحكاية شعرائه ومآسيهم وصراعاتهم مع السلاطين الطغاة .. لابد من زيارة سريعة إلى الماضي، نلقي من خلالها نظرة موضوعية على معضلة السياسة وطبيعة الحُكْم في العالم العربي وغاياته التي بلغتْ بهؤلاء الشعراء إلى حد المخاطرة والتضحية بالنفس والنفيس.

ونظراً للعلاقة العضوية بين ألوان المعرفة والثقافة بوجه عام، وبين الأدب وعلم التاريخ وعلم السياسة -على وجه الخصوص- أوْ باعتبار أن الأدب والشِّعْر مرآة لهذا الواقع، وأن الشّعراء -بمثابة- وسائل الإعلام التي تبث على الناس ما يحدث في المجتمع، وتروي لهم ما يجري في الأُمة من خير أوْ شر، وانتصارات وهزائم.

أيضاً، حتى يتسنّى لنا معرفة ما إذا كان هؤلاء الشُّعراء -الذين باعدتْ بيننا وبينهم القرون الطويلة والمسافات البعيدة- أكانوا على حق أمْ على باطل؟ أصابوا أمْ أخطأوا في دعواهم وآرائهم التي أذاعوها عبر أشعارهم؟ وهل هم «جُناة» وآثمون يستحقون ما أصابهم من أذىً ومكروه وما لاقوه من العنت، أمْ أنهم «ضحايا» ومجني عليهم كما يزعمون؟!

الأمر -إذن- يتطلب زيارة إلى الماضي، ورحلة سريعة إلى الوراء، نُقلّب صفحات التاريخ، لنستلهم وقائعه، ونعتبر بدروسه، ونتعلم من الأخطاء، ومن هم الذين أحسنوا ومن الذين أساءوا؟ ونستكشف الحلقات المفقودة بين الشعوب والحكام!

قراءة التاريخ، بلْ إعادة قراءته مرات ومرات ضرورة للغاية، فمن يقرأ التاريخ يزداد عُمراً إلى عُمره، لذلك .. ولحكمة بالغة كان قصص القرآن وما حواهُ من أحداث الأُمم الماضية يشغل حيزاً كبيراً من كتاب الله الكريم.

فكيف نقرأ التاريخ، وكيف نفقه أحداثه بين المد والجزر؟ ومَنْ ذا الذي يُفسّر لنا حوادثه ووقائعه وملابساته؟ حتى نعرف مَنْ القاتل ومَنْ المقتول؟ مَنْ الظالم ومَنْ المظلوم؟ مَنْ الجاني ومَنْ المجني عليه؟ مَنْ المُفترِي ومَنْ المُفترَى عليه؟

حتى نخرج من زحمة المتناقضات، وركام المراجع، التي قد كُتبتْ تارة بأقلام حواشي السلاطين وندمائهم، أوْ كتبها تارة أخرى أعداؤهم وخصومهم الألداء!

إنني أُحيل القارئ في هذا الشأن إلى رؤية محايدة وموضوعية .. إنها وجهة نظر نخبة من أُولي الألباب من العلماء والمفكرين البارزين المشهود لهم بالموسوعية، والاستقامة، والوسطية وسلامة القصد، وصدق النيّة.

إنَّ من شواهد صدق وموضوعية هؤلاء العلماء والمفكرين، أنهم ليسوا تابعين أوْ «موظفين» لدى هيئة أوْ مؤسسة أوْ حكومة ما، فلا يرغبون في ذهبْ المُعِزّ وكنوزه، ولا يخشون سيفه ووعيده. إنما نذروا حياتهم للبحث عن الحقيقة المجردة، فجهروا بكلمة الحق حينما صمت الآخَرُون!

أزمة العقل المسلم !

نستمع -أولاً- إلى وجهة نظر المفكر الإسلامي الدكتور/ **عبد الحميد أبو سليمان** -مؤسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة، والرئيس الأسبق

للجامعة الإسلامية بماليزيا- إذ يقول في كتابه «أزمة العقل المسلم» الذي انشغل بموضوعه وجمع مادته طوال نصف قرن من الزمان،ذلك الكتاب الذي يقول عنه الدكتور/ طه جابر العلواني: «لوْ لمْ ينتج العقل المسلم في المئة سنة الأخيرة غير هذا الكتاب لكفى»!

يقول الدكتور أبو سليمان في تحليله لتاريخ أزمة الصراع السياسي التي شهدتها الأُمَّة:

(إنه منذ سنة ٤٠ هجرية -أيْ بعد انتهاء الخلافة الراشدة- تحول الحُكْم إلى مُلْكٍ عضوض دعائمه القبلية والعصبية والاستئثار والاستبداد، وكان طبيعياً، وقد تغيرت القاعدة السياسية، أن يستقر الأمر لسلطان بني أمية وأن لا يستقر لعثمان أوْ علي أوْ الحسن من بعده رضي الله عنهم جميعا.

وكان طبيعياً أن لا تقوم على مدار أكثر من قرن من الزمان قائمة للجماعة القليلة من رجال الالتزام الإسلامي في مكة والمدينة، وأن تُدمَّر صفوف الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ومحمد ذي النفس الزكية وزيد بن علي وسواهم في حروب أهلية طاحنة كانت الغلبة فيها للقاعدة القبلية الواسعة لتزداد تمكناً بتقدم الأزمان مع جموع الأمم الوافدة على الإسلام من فرس وروم وهند وترك وسواهم من الأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام دون أن تتاح لها الفرصة للتربية والتدريب كيْ يصهروا نفوسهم في بوتقة الإسلام الخاصة الخالية من شوائب الجاهليات والعصبيات والباطنيات .. وهكذا كانت بداية الانحراف والتباعد عن غايات الإسلام ومفاهيمه الخالصة ومنهجه السليم هي غلبة الأعراب من رجال القبائل، وبالتالي تغيُّر القاعدة السياسية لتنتهي الأمة إلى قيادة ونظام هو خليط من إسلام وجاهلية.

وإذا كانت غلبة الأعراب على جيش الفتح وإسقاط الخلافة الراشدة وإقامة

مُلك بني أمية في موضعها السبب الأول للتغيير والانحراف، فإنّ ما نجم عن هذا التغيير الظاهر الملموس من تغيير معنوي كان أشد خطراً وأبعد أثراً، فقد نتج عن هذا التغيير انقسام في صفوف القيادة الاجتماعية مثّل فصاماً بين القيادة الفكرية عن القيادة السياسية وكان أساساً هاماً لما نجم بعد ذلك من عوامل الضعف والتدهور والتمزق وتراجع الطاقة الهائلة التي فجرها الإسلام في نفوس الناس والأمم.

فبعد قيام سلطان العصبية والأثرة والقهر في نظام المجتمع الإسلامي؛ فإنّ القيادة الفكرية الإسلامية الملتزمة المتمثلة في أرض الحجاز وحاضرة الخلافة الراشدة لم تتقبل التغيير الجديد وفكره وغاياته، فهبّت لمقاومته على أساس عقائدي وفكري، وليس على أساس قبلي.

وحين أنهكت الثورات والحروب الأهلية الطاحنة لأكثر من قرن من الزمان أصحاب الفكر والالتزام الإسلامي الذين فشلوا في استقطاب جماهير الأمة التي سيطر على عقليتها وتربيتها عقلية ومفاهيم القبلية والشعوبية والطائفية، اضطرت صفوفهم إلى التراجع والانطواء بعيداً عن القيادة السياسية والتخلي عن أسلوب المواجهة والقتال، وأخذت القيادة السياسية الجديدة في محاصرتهم ومحاولات إخضاعهم لمآربها وتضييق الخناق على معاقل الصلابة في مقاومتهم حتى كان نصيب كبار العلماء وعلى رأسهم الأئمة الأربعة الإيذاء والنكال، ليموت الإمام أبو حنيفة في السجن دون أن يقبل تولّي القضاء لسلطة سياسية غير ملتزمة، وليُضرَب الإمام مالك حتى تُشلّ يده لما جهر به من فتوى بطلان طلاق المُكره وما كان لهذه الفتوى من دلالة سياسية سلبية على خلخلة قبضة السلطة السياسية القائمة، كما نال الإمام أحمد الكثير من العذاب والأذى لمعارضته مخططات السلطة السياسية، وكان نصيب الإمام الشافعي الهرب من حاضرة السلطان في بغداد بعد أن سِيقَ إليها مُكبلاً من اليمن لخوف السلطة من فكره ونشاطاته السياسية حتى لجأ

إلى مصر -تلك الحاضرة البعيدة عن مركز السلطان- طلباً للسلامة والنجاة .. بل إنَّ التهمة «العجيبة» التي أرادوا أن يحاكموه من أجلها هي حب آل البيت والثناء عليهم، وما عُرِفَ آنذاك بفرقة «الرافضة» مما جعله ينشد في ذلك:

يا راكباً قِفْ بالمحصب من مِنى　　　واهتفْ بقاعد خِيفها والناهض
إنْ كان رفضاً حُبّ آل مُحَمّد　　　فليشهد الثقلان أنّي رافضُ

لقد شكَّل هذا التمزق والفصام بين القيادة الفكرية الإسلامية والقيادة السياسية الاجتماعية الأساس لتراجع وتمزق نسيج المجتمع العام وتدهور الفكر والأنظمة الإسلامية وانحطاطها وفتح الباب واسعاً أمام قوى التدهور والفساد والانحطاط.

لقد مثَّل هذا الفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية التربة الخصبة لأمراض الأمة اللاحقة والتي جعلتها اليوم تقف فكرياً ومادياً مبهورة الأنفاس -عاجزة ومهددة في صميم وجودها وكيانها- أمام التحدّي الحضاري الغربي المعاصر، الذي انتصب يهددها مادياً ومعنوياً بالسحق والدمار. فقد أدى هذا الفصام النكِد أولاً إلى عزل القيادة الفكرية عن المسئولية الاجتماعية والممارسة العملية، وهذا بدوره كان العامل الأساس والأهم خلف عجز العقل المسلم وضموره حتى انزوى في أروقة المساجد بين طيات الكتب النظرية والتاريخية التي تعني في جوهرها بأسلوب وصفي ونهج لغوي في معرفة مرامي وغايات نصوص الكتاب والسنة ومحاولة الحيلولة بين السلطان وأتباعه وبين استعمال هذه النصوص كوسيلة وأداة لتأصيل انحرافاته، وانتهى الأمر بهذه المعركة إلى ما عرف بقفل باب الاجتهاد، ولم يكن في الحقيقة للاجتهاد باب يُقفَل ولا دار تُهدَم! وإنما كان ذلك تعبيراً عما انتهى إليه الأمر من الضمور الذي أصاب الفكر من آثار عدم الالتزام لدى القيادة السياسية وما لحِقَ ذلك من محاولات السلطان السياسي للقهر والاستبداد بتطويع كل شيء تصل إليه يده لخدمة مصالح السلطة وأعوانها وعصبياتها، مما جعل العلماء ينكفئون على ما في أيديهم في صحون المساجد

بعيداً عن كل حادث وجديد.

وقد أدى هذا الفصام النكِد ثانياً إلى جهل القيادة السياسية وحرمانها من وجود قاعدة فكرية تخدمها وتواكب معها المتغيرات وتمدها بالفكر والسياسات والبدائل، فلا غرابة إذن أن تتحول القيادة السياسية في مجمل تاريخ الدولة الإسلامية إلى سلطة مستبدة غشوم تأخذ الناس بالقهر والخسف ولا يكون للشورى ومشاركة الأمة مجال ولا نصيب في تسيير شئون الأمة وتوليد قناعاتها وطاقة بذلها وعطائها، ولا غرابة أيضاً أن ينتهي الأمر بمجمل الأمة إلى الاضمحلال والانحسار والتراجع الحضاري في الكيان النفسي والفكري وفي المؤسسات والنظم.

هذا بعض ما قاله الدكتور أبو سليمان- في تحليله لأزمة العقل المسلم منذ بدأت أولى فصولها في الماضي البعيد، ثم استشرت تلك الأزمة المعضلة وتفاقمت مضاعفاتها حتى سَرَتْ في جسم الأمة كلها قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا، وألقتْ هذه الأزمة «الكارثة» بظلالها على الواقع الحالي للأمة، التي كانت من نتائجها الفقر والجهل والمرض والانتكاسات وتفشي الديكتاتورية والاستبداد والطغيان وسيادة الأنظمة الشمولية.

نعم .. إن حالنا الآن أسوأ مما كان عليه من قبل، وهذا القرن بالذات أشد ضراوة وقسوة مما سبقه من القرون، بلْ إنه ما من عامٍ يُقبِل على العرب والمسلمين- إلاّ شراً من الذي سبقه .. فالمسلمون من مائتي عام -فقط- كانوا أشدّ هيبة وأعزّ نفراً -مع ما تلاحَقَ عليهم من هزائم- فقد كانت الأساطيل الأجنبية لا تمر بالبحر المتوسط إلاّ بعد أن تستأمن من دوله الإسلامية إذْ كان المسلمون يفرضون ضرائب على السفن المارّة بشواطئهم!

سرّ تخلّف العرب والمسلمين!

حتى تتضح لنا الصورة ناصعة جلية في هذا الصدد .. ننتقل إلى مفكر كبير آخر،

وعالم جليل، وداعية لا يُشق له غبار، الداعية الذي احتشدت له الألوف لتستمع دروسه وخطبه الحماسية، وخرجت من أجله المظاهرات من قلب الجامع الأزهر تندِّد بأبواق الزحف الأحمر وسفراء الماركسية .. إنه الشيخ/ **محمد الغزالي**- الذي استطاع أن يضع مبضعه على موضع الداء، ويكتشف مناطق الخلل في الجانب السياسي للأمة، وما ترتبّ عليه من آثار سلبية في سلوكياتنا وحياتنا وثقافتنا، وذلك في كتابه «سر تأخر العرب والمسلمين» يقول الشيخ الغزالي:

(ومن أمدٍ بعيد أحسستُ أن هناك ازوراراً عن توجيهات الإسلام الحاسمة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمشياً مع أهواء فرد من الأفراد، أو طبيعة جنس من الأجناس .. إن أهل الكتاب الأقدمين حرّفوا الكلم عن مواضعه على نحوٍ ما، ونحن -على امتداد عدة قرون- نغلّف الوحي بأهوائنا حتى ضاع بريقه، وأكاد أقول لسكان القارات: إن ما ترون في شئوننا ليس ما أنزل الله من كتاب ولا ما قدّم رسوله من أُسوة، إن ما ترون هو عِوَج أُمة نسيت ما لديها ومضت مع هواها ... وقد بلغت من ضراوة الحجب التي رانتْ على بصائرها أنها تقاوم من يريد العودة بها إلى طريق الله، أنها تتعصب لمواريثها من تقاليد الانحراف والعجز، وتتأبى على عناصر الحق والرشد، التي عرفها سلفها فكانوا الأمة الأولى في العالم.

إنَّ الأمة الإسلامية تعاني صدوعاً هائلة، وهي الآن موزّعة على أكثر من سبعين قومية، أوْ سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة «جوازات السفر» على سواء! والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عملة ليس لها رصيد، وأتباعه يُنال منهم ولا ينالون، ويُجار عليهم ولا يجيرون! وذئاب الشرق والغرب تُغير عليهم فتفترس ما شاءت من القطعان السائبة دون أن يتمعّر وجه!

إنَّ إحراج يهودي واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان، وحول عداوة الساميّة، أمّا مقتل المئات والألوف من المسلمين في إفريقية وآسيا

وأوروبا فالخطب يسير! وقد يُثار بعض اللغط ثم تُنسى المأساة، وأول من ينساها المسلمون أنفسهم! ما سرّ هذا الضياع والشتات؟ ما وراء هذا التفكك والتبلد؟

الحق أن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية، وأنها بدأت من قديم، ولكن الكيان الحيّ قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها، وقد يصاب بها ويتماسك تحت وطأتها، وربما استطاع العيش زماناً وهو يحس بها ويعالجها بمسكنات موقوتة، بيد أنه سيقع فريستها آخر الأمر، مادام لم يتناول لها دواء يجلب العافية، ويحسم البلاء.

لقد بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بداية حسنة، فكانوا –أُمّة ودولة– نموذجاً حسناً لتعاليم الإسلام، واستفادوا استفادة صادقة من تاريخ الأمم الأولى .. لكن بمجرد انتهاء حقبة صدر الإسلام والخلافة الراشدة، بدأ التحول المذهل المشين، حيث نشأت العصبية القبلية، ونزعة الفردية الطاغية، وفرضت نفسها على شعبة الحكم في الإسلام، ثم فرضت نفسها على شُعب أخرى اجتماعية واقتصادية، وخلقية...

وهذا التسلل العربي المنحرف المغالب لتعاليم الدين بدأ على استخفاء، وبدأت العصبيات الشريرة التنفيس عن ذاتها في هذا الجو، فبدأت التحرك رافعة علم الدين! فالعربي الذي ولد في بطحاء مكة يرى أن لسلالته الحق في حكم شواطئ الهادي والأطلسي، إلا أنَّ أباه كان عمدة في الجزيرة العربية والشام والعراق.

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن علي بن أبي طالب –الخليفة الرابع– كان إمام حق، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته في خروجه على الإمام عليّ، ولم تكن لديه أية مؤهلات لهذه المكانة التي يصبو إليها سوى أنه ينتمي إلى المأسوف على شبابه حرب بن أمية ... وشاءت الأقدار أن يكسب معاوية هذه المعارك، ومن ثمّ تحولت الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض في بني أمية .. وهذا

التحول كان هزيمة للحق، وضربة موجعة للمثُل العليا ... لماذا يحمل نظام الخلافة على عاتقه هذا العبء الثقيل؟ وماذا كسب الدين نفسه من هذه الذرية من الضعفاء والأقوياء؟ لكن بني أمية، ثم بني العباس فعلوها، فاستصحبوا نسبهم «العريق» وهم يفرضون أنفسهم حُكاماً على الأمة، ويسوّغون وجودهم وحدهم في مناصب القيادة، بأنهم أقدر من غيرهم على خدمة الإسلام ونشر دعوته! قد تقول: مالنا ولهذا التاريخ القديم؟ ولماذا ننبش القبور؟ والجواب أن الأمر ليس أمر فرد ما، أو جنس ما، إنه أمر دين يجب إنصافه .. فإنَّ (الحُكْم) هو أول ما انحلَّ من عُرى الإسلام، وأمست «الدولة ورجالها» في أغلب الأعصار والأمصار الوجه الدميم للإسلام، لأسباب ينكرها الإسلام نفسه، ذلك أن الخليفة لم يكن أقدر الناس على القيادة، ولا من أقدرهم، أيْ أن الكفاءة استُبعِدت في الترشيح للمنصب! ثم وهنت أو ماتت أجهزة الشورى، وانفرد بالتصرف عقل واحد يزعم لنفسه الكثير! وانطلقت الأيدي في المال العام تغرف منه دون حسيب ولا رقيب، وذهبت قناطير منه للخدّامين والمدّاحين، واضطرب العمل بالإسلام في الداخل والخارج على سواء، بلْ لم توجد أجهزة رسمية متخصصة للدعوة في أنحاء العالم، ففحش الجهل بالإسلام، وحسب الأجانب أن الإسلام دين قتال وحسب!

لقد كان انحلال عروة الحكم آفة تحمّلها الكيان القوي كما يتحمل الإنسان السويّ صداعاً اعتراه .. وظهرت المأساة مع مرّ الزمان، وترادف البلاء و ... شيخوخة الدولة، وضعف أجهزة المناعة، وقدرة الجراثيم الكامنة على الفتك دون وجل .. إن غلبة النزعات البدوية، والعصبيات العائلية على نظام الخلافة خلّف شروراً كثيرة ... ففي العهد الأموي قُتل قادة الفتوح العظام في المشرق والمغرب ولقوا معاملة منكرة! قُتِلَ قتيبة بن مُسلِم الباهلي -فاتح الصين- هو وأولاده شر قتلة، كما قُتِلَ محمد بن القاسم -فاتح السند- وأُهين وعُزِلَ موسى بن نصير فاتح

المغرب والأندلس لأسباب لا تُشرِّف نظام الحكم .. ولوْ أنَّ الخلافة الراشدة باقية، لكان للقادة العظام شأن آخر، بلْ لمضى الفتح في طريقه يؤدّب الأوروبيين، ويتيامن حيث وصل إلى جنوب فرنسا وجبال سويسرا ليشق طريقه نحو النمسا والبلقان والقسطنطينية في شرق أوروبا وبذلك يعود إلى الشام متمماً الرحلة التي بدأت من مصر ... إن الخلفاء الأكاسرة لا يكترثون بذلك! لقد هاجت القومية العربية بغتة في دمائهم، وعادت إليهم حمية الأنساب، وتقاليد البسوس وداحس والغبراء، ورجّحوا وساوس هذه العروبة الرعناء على وصايا الدين الذي ما كانوا قبله شيئاً مذكوراً، وهزموه آخراً بعد ما نصروه أولاً).

هـذا هو فقه الشيخ الغزالي لوقائع التاريخ العربي والإسلامي، وهذه هي قراءته للأحداث قديماً وحديثاً، وهذا هو تشخيصه لحال الأمة وأوضاعها على كافة الأصعدة، ورأيه في سرّ الفجوة الهائلة عبر تاريخ الأُمة الطويل بين الحكومات والشعوب، بين الرعاة والرعية، بين الحكام والساسة من جانب والعلماء والمفكرين والأدباء من جانب آخر.

فالشيخ الغزالي بذكائه أدرك أن المرض العضال يكمن في الأنظمة الجائرة والمُلْك العضوض والديكتاتورية والاستبداد، وأدرك أن سبب الداء العُضال هم أشخاص الحكام والملوك، فإنْ هم صلحوا صلح سائر الجسد، وإنْ هم فسدوا فسد سائر جسد الأمة .. حيث يقول الشيخ في موضع آخر من ذات الكتاب:

«ما السبب؟ أشخاص الخلفاء أنفسهم، والطريقة التي جاءوا بها إلى منصب الخلفاء! إذْ سرعان ما تحول معظم نشاط أولئك الخلفاء إلى المحافظة على الحكم في ذراريهم، وإلى مكافحة الفتوق التي يُحدثها الناقمون والمعارضون ... ثم جاء العثمانيون فقلّدوا من سبقهم، ولِمَ لا؟ والمتأمل في القيمة الذاتية لأشخاص الذين وُلُّوا أعظم مناصب الدنيا يشعر بالحسرة ... إن بعض الخلفاء لوْ بيعوا رقيقاً ما جاء

أحدهم بثمنٍ طائل، ولكن عنجهية العرب فرضتهم على الإسلام ليقودوه بضعة قرون، فماذا حدث؟ قبعوا في قصورهم، واغتصب السلطة منهم أمراء ووزراء من أجناس أخرى، ولقي أغلبهم مصيره على شر وجه»!

بالطبع هذا أمر محزن ... خاصة عندما نرى دولاً عديدة وأُمماً كثيرة جاءت بعدنا، لم يكن لها ذكر في التاريخ ولا الجغرافيا من قبل، لكنها نهضت نهضة كبرى، وسادت الدنيا بأسرها، وبسطت سيطرتها على العالم كله، براً وبحراً وجواً، بلْ صرنا نتسوّل منها طعامنا وشرابنا ودواءنا، ونستورد منها القوانين والدساتير والتشريعات والأدب والفن و«الشِّعر» أيضاً، بلْ وتُلقّنا -تلك الدول- دروساً في حقوق الإنسان والحيوان، وكيف نعامل المرأة والطفل! وتدعونا إلى ضرورة الإصلاحات السياسية والاقتصادية، وتأمرنا باحترام الحريات وممارسة الديمقراطية، وتنهانا عن سياسات القمع وإغلاق الصحف وكسر الأقلام وتكميم الأفواه، وتُحذّرنا من شق قلوب الشعراء ودواوينهم أو بقْر بطونهم للكشف عن المعاني!

أليس هذا واقعنا بالفعل؟ أو ليس الوهن بلغ بالأُمة ما بلغ؟ أولمْ نُصبح عالةً على الأمم الأخرى، وعبئاً ثقيلاً على البشرية؟ أليست الأمة شاختْ وترهّلت إلى هذا الحد؟ وهل أحد يختلف في أننا أصبحنا في ذيل الأمم ومؤخرة الحضارات؟ وأنّ أمتنا ضحكت من جهلها الأممُ -منذ زمن المتنبي- وما زالت تضحك، وتضحك، وتتمايل من فرط الضحك والقهقهة!

الحلول المستوردة

كذلك؛ الدكتور/ يوسف القرضاوي- يطرح رؤيته حول واقع المسلمين وأزماتهم، في كتابه «الحلول المستوردة .. ماذا جَنَتْ على أمتنا»؟ فيستعرض أحوال الأمة، مُشخِّصاً عللها وأمراضها، فيقول:

(.. ولا يُنكِر عاقل أن وطننا العربي الكبير من الخليج إلى المحيط، بلْ الأمة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها، تعاني مشكلات متعددة متنوعة، مشكلات مادية وإنسانية، مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية. وكلها تتطلب الحل، والحل الحاسم السريع، فإن مرور الأيام لا يزيدها إلاّ تفاقماً واستفحالاً، كالداء الخبيث الذي يتضاعف خطره، كلما تأخر علاجه، وربما أدى إهماله إلى تمكن الداء، واليأس من الشفاء.

نعم .. إن أجزاء كثيرة من هذا العالم الفسيح تشكو من سيطرة الأجانب -غير المسلمين- على أرضها، وتحكمهم في أهلها، كفلسطين وكشمير وأريتريا والحبشة وقبرص وبخارى وسمرقند وغيرها من ديار الإسلام.

والأجزاء الأخرى من هذا العالم تشكو من هذا التمزق العجيب والتجزئة المفتعلة، والحواجز المصطنعة، التي جعلت من الأمة الواحدة -كما رضي الله لها- أُمَماً ودولاً -كما شاء الاستعمار- يجافي بعضها بعضاً، بلْ يضرب بعضها وجوه بعض. حتى لترى بعضهم يقف مناصراً لأعداء المسلمين ضد المسلمين، استجابة لنعرات جاهلية، أو خضوعاً لسياسة استعمارية غربية أو شرقية.

والناس داخل هذا العالم الإسلامي يشكون ويتوجعون: الكبير يشكو، والصغير يشكو، والمثقف يشكو، والأُميّ يشكو، والطبقات كلها تشكو، والشعوب كلها تشكو.

أجل؛ شعوبنا تشكو تخلفاً في العلم، وتخبطاً في السياسة، واضطراباً في الاقتصاد، وتفككاً في الاجتماع، وتدهوراً في الأخلاق، وبلبلة في الأفكار، وزعزعة في العقائد، وضعفاً في التربية، وخواء في الروح، واختلافاً في الصفوف: اختلافاً على الغايات والأهداف، فضلاً عن الوسائل والطرائق.

وقد كشفت الحقبة الأخيرة بأحداثها الجسام عن هذا الفساد العريض،

والانحلال المتغلغل في كيان الأمة، والضعف الكامن في كل جوانبها، وعادة الجسم العليل أن تبرز كوامن علته لأدنى وعكة تصيبه، فتخور قواه، وتنهار صحته، ولا يجد قدرة على الصمود والمقاومة لأضعف «الميكروبات» وإنْ كان في ظاهره غنياً باللحم والشحم).

هذا هو تشخيص الشيخ يوسف القرضاوي لماضينا وحاضرنا.

إنه تشخيص الطبيب الماهر الذي أدرك موطن الداء، وسبب البلاء .. إنه أمر غاية في الخطورة ما لم يتحرك الجميع -فوراً- لإسعاف هذا المريض، وإدخاله غرفة الإنعاش، أو تلقينه الشهادتيْن قبل أن تفارق روحه الحياة!

وكما نعلم أن لكل مرض أسباباً أوْ مسببات، وهذه المسببات تتعدد وتتنوع حسب نوع المرض ذاته، والطبيب الناجح والماهر هو الذي يعرف كيف يُشخص المرض في المرحلة المناسبة قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء. والأمانة مطلوبة من الطبيب عند التشخيص بحيث لا يُخفى الحقائق عن مريضه، حتى وإن كانت مُرة وخطيرة، لأن المكاشفة والمصارحة الأمينة مطلوبة إذا أردنا إيقاف المرض. وأسباب هذا المرض تتنوع مسبباتها وتتعدد أشكالها.

ونتيجة لهذا التنوع في الأسباب فإنه يمكننا القول بأن العلاج لن يكون سهلاً، خاصة ونحن نتحدث على امتداد رقعة الأمة كلها، وخاصة أيضاً أن كثيرين في بلادنا لا يحبون أن يسمعوا الحقائق أو يروها، وذلك إمّا هرباً من مواجهة الحقائق أو خداعاً للنفس .. ولن تُحل مشكلاتنا مع هذا الصنف من المخدوعين ..

إنّ العالم العربي والإسلامي محتاج اليوم إلى النصيحة الخالصة والمخلصة من العلماء والمفكرين والدعاة «فالدين النصيحة». وفي موضوع كهذا الذي استعرضنا جوانبه -آنفاً- فإنّ النصيحة موجهة بالدرجة الأولى إلى أئمة المسلمين ومن بأيديهم الأمور من حكام ووزراء ومخططي سياسة ومديري جامعات ... إنّ هؤلاء جميعاً

مسئولون عن تفهُّم أسباب تخلف شعوبهم وأوطانهم، وانهيار أوضاعهم وتراجع حضاراتهم .. وبالتالي فإنهم مسئولون عن محاولة الإصلاح وإنقاذ ما يمكن إنقاذه!

علاقة الأدب بالسياسة

لعلّ تلك الإطلالة التاريخية، التي قدمناها قبل التعرض لعلاقة الأدب والشعر بالسياسة، كانت من لوازم بحثنا هذا، وضرورة من ضرورات استنطاق التاريخ، والاستماع إلى أنين الماضي لاستشراف المستقبل المجهول، كما أن فيها فائدة كبرى لقراء الأدب، فإن الجهل بالتاريخ جهل ما بعده جهل، وفضيحة ما بعدها فضيحة، لأن الجهل به يعني الجهل بكل شيء، بالحياة وحتى الممات!

فالأدباء -بالذات- أولى الناس بقراءة التاريخ وفِقْه أحداثه .. وإذا كان المؤرخ يسعى لزيادة وعينا بالتاريخ من خلال الأفراد، فإن الأديب يهدف إلى تكثيف وعينا بذواتنا من خلال التاريخ الإنساني، وهنا تكمن المهمة التاريخية الحقيقية الملقاة على عاتق الأديب.

هكذا يختلط التاريخ بالأدب، كما تختلط السياسة بالأدب، فلا غنى لهذا عن ذاك. وفي كتابه «التفسير العلمي للأدب» أوضح الدكتور/ نبيل راغب- مدى علاقة الأدب بعلم السياسة، حيث يقول: ارتبط الأدب الإنساني بالسياسة منذ أقدم العصور، وقبل أن تصبح علماً له أصوله ومعاييره وقواعده، فإذا أخذنا ملحمتي «الإلياذة» و«الأوديسا» للشاعر الإغريقي هوميروس -على سبيل المثال- سنجد أن الصراع بين الزعماء السياسيين قد شكل العمود الفقري لهذا الشعر الملحمي، فلم يكن هناك فارق بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين في ذلك الوقت، لذلك كانت الحروب التي تضمنتها ملحمتا هوميروس بمثابة الصراع السياسي على أرض الإغريق في أوضح صوره التاريخية.

الوضع نفسه ينطبق على الشِّعر العربي منذ عصور الجاهلية، فكان الشاعر -في

كثير من الأحيان- بمثابة المفكر السياسي للقبيلة، فهو الذي يوجهها بقصائده وخاصة تلك التي تدور حول الحرب والكرامة وأغراض الحماسة الأخرى. وفي عصر ازدهار الحضارة العربية قرّب الملوك والخلفاء كبار الشعراء إليهم وأصبح الكثيرون منهم من رجال الحاشية، وبصرف النظر عن قصائد المديح التي اشتهر بها بعض الشعراء بهدف الحصول على المنح والعطايا، فقد كان لمعظم الشعراء كلمتهم المسموعة في إدارة دفة شئون الحكم والسياسة العامة للدولة.

على مر التاريخ كانت تقاس سعة أفق الحاكم بمدى اهتمامه بالفنون والآداب، فمثلاً كانت الملكة إليزابيث الأولى -ملكة انجلترا- من المعجبين بفن شكسبير، وكانت من رواد مسرحه، وكان هو بدوره من رجال بلاطها، وقد مكّنه اقترابه منها على الاطلاع على حياة القصور حتى كتب مسرحياته التاريخية التي تتخذ من ملوك انجلترا أبطالاً لها، وفيها بلور فترات الصراع الدموي للحصول على كرسي الحكم، وهو الصراع الذي استمر حتى استقرت الأمور في عهد الملكة إليزابيث، وأصبح العصر الإليزابيثي بداية التاريخ الحضاري لبريطانيا كلها فيما بعد.

غنيٌّ عن الذكر أن المفكرين والأدباء في فرنسا قد مهّدوا للثورة الفرنسية بكتاباتهم التي هاجمت الإقطاع والإرهاب والظلم الاجتماعي، وفتحت أذهان الجماهير الكادحة على أوضاعهم التي تتنافى مع كل القيم الإنسانية المعروفة. بلْ إن التاريخ يذكر للروائية الأمريكية «هارييت بيتشر ستو» أنها أشعلت شرارة الحرب الأهلية الأمريكية بروايتها «كوخ العم توم» التي حازت شهرة عالمية، وتركت أثراً كبيراً في الفكر الإنساني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لدرجة أنه عندما زارت «هارييت ستو» الرئيس إبراهام لنكولن في البيت الأبيض، رحّب بها بقوله «أهلا بالسيدة الصغيرة التي أشعلت الحرب الكبيرة» فلقد أثبتت لأهل الشمال أن الرّق نظام يتنافى مع أبسط المبادئ الإنسانية، أمّا الجنوب فكان ينضح بالكراهية

للرواية ولصاحبتها، ولم يحدث من قبل أن تركت رواية بصماتها واضحة على السياسة في عصرها كما فعلت هذه الرواية.

من الواضح أن الأديب الناضج يقف موقفاً محدداً من النظم السياسية، فإذا كانت «ديمقراطية» فإنه يقف بكل قواه لكي يساندها حتى تمنحه المزيد من حرية التعبير الفني عن كل المضامين السياسية التي تخطر على باله، وإذا كانت هذه النظم «ديكتاتورية» فإنه يقاومها بكل وسائله الفنية، ذلك أن الديكتاتورية تكبت الحريات وعلى رأسها حرية التعبير، وتريد إلزام الأدباء بمضامين واتجاهات تتمشى مع سياسة الديكتاتور، والأدب الإنساني الرفيع لا يمكن أن يعيش تحت ظل الإلزام والكبت، لأنه بذلك يتحول إلى بوق أجوف للدعاية السياسية، ومن ثم يفقد دوره الفني والإنساني تماماً. قد يقبل الأديب بمبدأ الالتزام في ظل النظام الديمقراطي، لأن الالتزام نابع من داخله ومن قناعاته الشخصية بالنظام، أمّا الإلزام فيفرض عليه من الخارج في ظل النظام الديكتاتوري، وهذا هو السر في المعاناة القاسية التي يمر بها الأدباء تحت وطأة الديكتاتورية، لدرجة أنها تصل إلى حد التشريد والسجن والنفي والموت.

وتنزع الديكتاتورية المعاصرة إلى استخدام العلم والفن لدعم نظم حكمها، وخاصة الأدب باعتبارها وسائل وأساليب للتأثير في عقول الجماهير داخل الوطن وخارجه، ويُستخدم الفن خاصة بطريقة منظمة كوسيلة نفسية اجتماعية – وذلك لغايات سياسية سمتها الاضطهاد والعدوان، ومن أجل أغراضه ومآربه يعمد الديكتاتور المعاصر إلى استخدام أية أداة فنية تناسب أهدافه في السيطرة على الاتجاهات والعواطف العامة بين أفراد شعبه والشعوب الأخرى، والدولة الاستبدادية المطلقة تعتبر الحرية والفردية والشكلية الأسلوبية والاتجاهات الفوضوية في الفن، ضرباً من عوامل بث الضعف في النظام السياسي، فهي تفضل

أن يكون الفن مباشراً وقابلاً للفهم حتى يوصل الرسالة المرغوبة: رسالة الطاعة ومطابقة الجماعة.

والدولة الاستبدادية المغلقة لا يوجهها الفنان أو الأديب أو جمهورها، وإنما توجهها الحكومة في شئون الأدب والفن وغيره من السلع الاستهلاكية، ذلك أن الفنون والآداب تعتبر مجرد سلع استهلاكية في ظل النظم الشمولية تنتهي قيمتها الفنية عند توصيل مضمونها الفكري إلى الجماهير، فالناس يتلقون ما ترى الحكومة أنه نافع وخير لهم، وكثيراً ما يخصص للفن نصيب من الدخل القومي يتناسب وقيمته بوصفه وسيلة لغايات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وعلى الفنون والآداب أن تساير الخط السياسي الذي تتبعه الدولة.

ويلاحظ أن الفنون والآداب تزدهر عادة في ظل النظم التي تنأى عن الاحتكارات التجارية والمؤسسات العسكرية، كما تزدهر تماماً بعيداً عن النظم الاستبدادية والديكتاتورية، والدليل على ذلك أن الكثير من الإنتاج الفني والأدبي الخلاق الذي أنتجه الأدباء الغربيون، لم يظهر إلاَّ في ظل مناخ الحريات قبل الحربين العالميتين، والشواهد على ذلك كثيرة جدا.

تسييس الأدب!

بالرغم من تأخر ظهور الأشكال الأدبية كالقصة والمسرحية في مجتمعاتنا العربية، إلاَّ أنها منذ نشأتها الأولى وهي مُتلبثة بالسياسة بشكل واضح أو خافت، كما نجد في قصص وروايات «ليل وقضبان» و«عمالقة الشمال» و«عذراء جاكرتا» و«عمر يظهر في القدس» لنجيب الكيلاني، أو «في بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس، أو «السمان والخريف» لنجيب محفوظ، أو «أرض النفاق» ليوسف السباعي، وغالبية أعمال علي أحمد باكثير، وعبد الحميد جودة السحار، وعبد الرحمن الشرقاوي، وثروت أباظة، وغيرهم. هذا فضلاً عن الأعمال المسرحية للشرقاوي، وتوفيق الحكيم،

ومسرحيات فاروق جويدة مثل: «دماء على ستار الكعبة، والوزير العاشق، والخديوي، وهولاكو ...» وغير ذلك من الإبداعات التي كانت ذا مغزى سياسي، أو التي تُسمّى بـ(الإبداعات السياسية) التي كتبها الأدباء العرب خلال القرن العشرين.

أمّا في ميدان الشِّعْر «ديوان العرب» فحدِّث ولا حرج، نظراً لاتساع رقعته الجغرافية، وامتداد عمره الزمني الذي يتجاوز ستة عشر قرناً من الزمان، والتي شهدت أجيالاً متعاقبة من الشعراء.

لعلَّ «التوجه السياسي» في الشعر أوضح منه في الأجناس الأدبية الأخرى، لأن القاص أو الروائي يمكن أن يستبطن المعاني من خلال السرد الطويل أو المناورة والالتفاف حول كثرة الشخوص والأمكنة والأزمنة التي يستلهمها العمل الأدبي. هذا فضلاً عن أن الشعراء هم أكثر الناس تأثراً وأسرعهم استجابة لما يدور حولهم من الأزمات الصغرى والأحداث الكبرى، فقد تنطلق القصيدة من جوف الشاعر مدوية قبل أن ينطفئ الحدث أو تنتهي الأزمة، بينما نجد الأعمال القصصية والروائية في مجملها تعتمد على تقصّي آثار الحدث والبحث عن منحنياته والقيام على بلورة المستقبل واستشراف آفاقه، مستخدمة في ذلك أدواتها الفنية وأساليبها الدرامية .. وهذا بطبيعة الحال يحتاج من الفنان أو الأديب إلى عمر زمني طويل لاستخراج هذا العمل إلى النور، فعلى سبيل المثال: كتب المتنبي رومياته أثناء نشوب الحرب بين الحمدانيين والروم، كما أنجز أبو تمام رائعته التي تسمى «البائية» قبل أن ترجع الجيوش المنتصرة من مهمة «فتح عمّورية». وفي العصر الحديث، طالعنا نزار قباني بقصيدته «هوامش على دفتر النكسة» قبل أن تضع حرب حزيران أوزارها، في حين أنه لم يظهر أيّ عمل روائي عن هذه الكارثة إلاَّ بعد مرور سنوات! كما كتبت الشاعرة الكبيرة علية الجعّار قصيدتها «الله أكبر .. بسم الله» بمجرد انطلاق شرارة

معركة الكرامة في يوم 6 أكتوبر 1973، بلْ إنه في ذات اليوم تم تلحين وغناء هذه القصيدة في جميع أجهزة الإعلام المصرية والعربية. في حين أنه لم يستطع كُتّاب القصة أن ينجزوا رواية ذات قيمة إلى الآن!

خصائص الشّعر السياسي

هذا اللون الشِّعري -الممنوع اقتناؤه والمحظور تداوله- له سمات خاصة به دون غيره من الألوان الشعرية الأخرى، كما أن شعراءه لهم خصائص نفسية معينة، وله ظروف زمانية ومكانية بذاتها، سوف نشير إلى جانب منها في السطور التالية:

- (الشِّعر السياسي) كثيراً ما يعبر عن «أيديولوجية» فكرية بعينها؛ كالأحزاب والفِرق والمذاهب والعصبيات المتناحرة، وخير شاهد على هذا اللون الشعري ما كان في العصر الأموي بالذات، حيث ارتدّت الحياة السياسية والاجتماعية إلى سابق جاهليتها في العصبيات المتأججة التي استشرت حتى أصابت بعض فضلاء المسلمين والصحابة غافلين عما في ذلك من الضرر، كفعل عمرو بن العاص بوفد الأنصار الذي قدم على معاوية بن أبي سفيان وكان فيهم النعمان بن بشير، فقالوا للحاجب: استأذِن لنا، فدخل فقال لمعاوية: الأنصار بالباب، فقال عمرو بن العاص: ما هذا اللقب الذي جعلوه نسباً، اردهم إلى نسبهم، فقال معاوية: إن علينا في ذلك شناعة، فقال: وما في ذلك! إنما هي كلمة مكان كلمة ولا مرد لها، فقال له معاوية: اخرج فنادِ: مَنْ بالباب من ولد عمرو بن عامر فليدخل، فخرج فنادى بذلك فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار. فقال له: اخرج فنادِ: مَن كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل فخرج فنادى بذلك، فوثب النعمان بن بشير فأنشأ يقول:

يا سعدُ لا تعد الدعاء فما لنا ... نسبٌ نجيبُ به سوى الأنصار

نسبٌ تخيّرهُ الإلهُ لقومنا ... أثقِل به نسباً على الكفّار

إنّ الذين ثووا ببدرٍ منكمُ ... يوم القليبِ هم وقود النارِ

obeikandi.com

هذا العصر الذي شهد من المخازي والفواجع ما يجعل الحليم حيران! فهو العصر الذي شهد مولد فرقة الخوارج المنشقّة على الإمام عليّ -كرم الله وجهه- وشهد مقتل هذا الخليفة الراشد العادل المجاهد الزاهد، وشهد افتتان أصحابه به وتشيّعهم له ولآل بيته لى حد مجاوزة الحق والصواب، كما شهد مقتل الإمام الحسين -عليه السلام- في معركة غير متكافئة، ثم شهد خروج فرق الثائرين لمقتله وثأرهم له ولمن استشهدوا معه من آل البيت، وشهد خلافة عبد الله بن الزبير ومناوأته لبني أمية ومقتله!

إذن، حُقّ لشاعر مثل «أبو دهبل الجمحي» أن يحمل روح السخط الشديد على بني أمية، لقتلهم ابن بنت رسول الله في كربلاء:

تبيت سكارى من أمية نوماً	وبالطُّف قتلى ما ينام حميمها
وما أفسد الإسلام إلا عصابة	تأمّر نوكاها ودام نعيمها
فصارت قناة الدين في كف ظالم	إذا اعوجّ منها جانبٌ لا يقيمها

هذه الأبيات من الشّعر السياسي الذي يبيّن مدى سخط هذا الشاعر على بني أميّة لإقدامهم على هذه الفعلة الشنعاء، وللمفاسد التي شاعت في أيامهم، وهو هنا يعرّض بيزيد من مقارفة الذنوب، والاجتراء على المحرمات.

كذلك الحال؛ نجده عند الشّاعر «خالد بن غفران» الذي ندّد كثيراً في قصائده السياسية اللاذعة بطغاة بني أمية وجرائمهم البربرية، فيقول عندما أُتي برأس الإمام الحسين إلى دمشق:

جاءوا برأسك يا ابن بنت مُحمّدٍ	متزمّلاً بدمائه تزميلا
وكأنما بك يا ابن بنت مُحمّد	قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا	في قتلك التأويل والتنزيلا
ويُكبّرون بأنْ قُتِلتَ، وإنما	قتلوا بك التكبير والتهليلا

- (الشِّعر السياسي) يغلب عليه في بعض الأحيان طابع «الكَتْم» وهذا اللون ما أسماه النقاد بـ«المُكتّمات» وهي أشعار موجودة في كل عصر، وقصائد المُكتّمات يصعب العثور عليها، فضلاً عن الاستدلال على أصحابها، فمصيرها الضياع والتلف والتشويه، أوْ الإحراق، أوْ الإغراق، لأنها ذات طبيعة معينة، وموضوعاتها ذات مغزى ودلالة على طبيعة العصر، فهي أشبه بالقنابل والمتفجرات الممنوع اقتناؤها، أو هي كالسلاح غير المرخص به، فيتحول عندئذ إلى «السوق السوداء» ويتداول بين الناس سراً وعلى حذر عظيم.

- (الشِّعر السياسي) وليد ظروف بعينها، فالشَّاعر مدفوع إليه دائماً بدافع قهري، فعندما تلح عليه فكرة أو موضوع القصيدة، فلا يستطيع صدها أو منعها أو حتى تأخيرها، إنها لحظة المخاض -كما وصفها الشعراء أنفسهم- فلابد لهذا الجنين أن يخرج إلى النور على الفور سواء كانت ولادته عادية ميسّرة أو قيصرية متعسّرة، المهم أن يخرج هذا الكائن إلى الحياة. أمّا عن اسمه ورزقه وأجله، فهذه مسائل أخرى تتضح معالمها فيما بعد الولادة .. حيث يبدأ صراع هذا «الوليد» الشعري مع الوجود الخارجي الملبّد بالسحب الداكنة، والدخان الكثيف، والعواصف الهوجاء، والحفر والمطبّات الطبيعية والصناعية، ولطالما نجد أن هذا الوجود الخارجي في حالة لا تسمح له بقبول هذا الوليد أو منحه مكاناً تحت النور، إما لسبب راجع إلى الشعر نفسه، أوْ إلى المجتمع، أوْ إليهما معاً!

وقد يفطن الشاعر إلى ذلك من نفسه منذ البداية فيمتنع عن إنشاد هذا الشعر أو يتخلص منه، كما فعل أبو نواس بأشعار له أحرقها قبل أن يموت، فلما سئل قال: هذه أشعار كنتُ أضن بها أن يسمعها الناس وسمعها الناس وكرهت أن تبقى بعدي فينتحلوها، فأحرقتها.

- (الشِّعْر السياسي) موصول بجميع الأزمنة والأمكنة .. فلا يخلو عصر من هذا

اللـون الشِّعري الغاضـب، نظراً لوجـود فئـة مـن الأدبـاء «الراديكـاليين» أصحاب الأفكـار المرفوضـة سياسـياً أو عقـدياً أو اجتماعيـاً، وهـؤلاء تقـوم السـلطة القائمـة بتكميم أفواههم، فلا يكادون ينطقون جهراً حتى يُؤخَذوا بجرائر ألسـنتهم، وربـما يشتد بهم الأمر فيؤخذوا بذنب تفكيرهم قبل نطقهم، فكلنا يعرف حكاية أمل دنقل وقصيدته «لا تصالح» التي لم تتجرأ على نشرها أية مطبوعـة مصريـة آنـذاك! ومُظفَّر النواب وقصيدته اللاذعة «القـدس عـروس عـروبتكم» التـي لم تـنشر في صـحيفة أوْ كتاب، وكانت تتداول سراً بين عشـاق الأدب والشـعر، فلـم يكـن أحـد يعـرف مـن صـاحب هـذه القصـيدة حتـى وقـت قريـب! وقصـيدة «رسـالة إلى الفرعـون» لعبد الرحمن العشماوي، التي لم يستطع أحد –في بادئ الأمر– معرفة من هو شاعرها الجريء! وكذلك القصيدة الحارقة التي نشرتها الصحف بدون توقيع اسم صاحبها، وهـي بعنـوان «رسـالة مـن صـدام حسـين إلى قمـة الـزعماء العـرب في تـونس»! إذْ تضاربت الآراء في معرفة شاعرها، وإنْ كانت أصابع الاتهام قد أشـارت إلى السـفير اليمني عبد الولي الشميري!

مهما يكن من أمر، فإنه لا خلاف في أن هذه الظاهرة (الُمكتّمات) أوضـح ما تكـون في العصر الأموي، ذلك العصر الذي تحولت فيه الأُمة من خلافة راشدة مثاليـة، إلى مُلْك عضوض، وانحرف فيـه الخـط السياسي كليـة، وكثـرت فيـه الفِـرَق والمذاهـب السياسية على نحو غير معهـود، ممـا حـدا بشـاعر مُتشيّع مثـل ابـن هرمـة الـذي كـان مدفوعاً بقوة من داخله بذلك الحب الذي ملك عليه فؤاده وتغلغل في أعماق نفسـه، فيقول في آل البيت:

ومهمـــا أُلامُ علــــى حبهـــم	فــإني أحـــبُّ بنـــي فاطمــــة
بنـي بنــت مــن جـــاء بــالمحكما	تِ والـــدين والسّـــُنة القائمــــة

هذا الشَّاعر الذي كان إذا سأله سائل: من قائل هذه القصيدة، فينكر نسبتها إليـه

خوفاً من بطش الحكومة القائمة آنذاك. فيخرج الشعر بذلك من طور «الكَتْم» إلى الانتحال أو نسبة الشعر إلى مجهول أو غير ذلك. فلا نعجب إذا علمنا أن ابن هرمة كان واحداً من الذين حضّوا أبا العباس السفاح على الفتك بمن بقي من بني أمية وعدم التسامح معهم!

أشهر حادثة في هذا الباب هي القصيدة المشهورة المنسوبة إلى يزيد بن مفرغ الحميري والموجهة إلى معاوية بن أبي سفيان عندما استلحق زياد ابن سمية، وهي قوله:

ألا أبلِغ معاوية بن حرب ... مغلغلة من الرجل اليمان
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زان!
فأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً ... وصخر من سُميّة غير دان!

هذه الأبيات المقذعة ما كان هذا الشاعر على جرأته على زياد ليوجهها إلى معاوية، وقد أنكرها بين يديه -كما يقول صاحب كتاب الأغاني!

وقد نسبها -صاحب كتاب الشّعر والشّعراء- إلى غيره من الشّعراء، لأن الشّاعر نفسه قال في زياد أسوأ من ذلك بكثير، وكان يكتبه على حيطان الحانات في البصرة، وكان أهل البصرة يتغنّون به. وقد أمر عبيد الله بن زياد بأن يمحو هذا الشّاعر ما كتبه على الحيطان بأظافره حتى عدم أصابعه!

هذه النماذج الشِّعرية والقصص التي رافقتها، إذا دلّت على شيء فإنما تدل على أن الحياة السياسية ألقت بظلالها الكثيفة على الشعر، مما جعل بعض الشعراء يكتمون أشعارهم، أوْ يتنكرون لها، أوْ ينسبونها إلى غيرهم مخافة بطش السلطان أو الديكتاتور المستبد الذي يتعقب خصومه ومناوئيه وينكل بهم بمجرد الاشتباه في تورطهم ولوْ في بيت واحد من الشعر!

ونظراً لهذه الوسائل البوليسية والسياسة القمعية التي حرمت الناس من حق التعبير عن الرأي، أوْ الإفصاح عما يجيش بخواطرهم، أوْ حتى رثاء موتاهم ... فقد ضاع تراثاً أدبياً هائلاً، وثروة شعرية لا يُستهان بها في ذاك العصر الأموي بالذات. بحسبْ أن تعلم أنه لم تصل إلينا قصيدة واحدة كاملة من مراثي الإمام الحسين وآله الطاهرين في كربلاء!

لم تصل إلينا ولوْ قصيدة واحدة من عصر «فحول الشعراء» وفي حدث جلل كهذا، ومأساة لا تعادلها أية مأساة أخرى في التاريخ!

- (الشِّعر السياسي) لا يتصنّعه المبدعون ولا يتكلّفونه كغيره من الأغراض الشعرية الأخرى كالفخر والوصف والمدائح، إنما يفرض نفسه عليهم فرضاً، بسبب سوء أحوال البلاد الاجتماعية وتدهور أوضاعها السياسية .. وحول هذا المعنى يقول الدكتور «عثمان قدري مكانسي»: خرجنا على الدنيا في نهاية خمسينات القرن الماضي نردد ما غنّاه محمد عبد الوهاب للشّاعر علي محمود طه:

أخي جاوز الظالمون المدى فحقَّ الجهاد وحقَّ الفدا

ترنّمنا بها فشحنت قلوبنا وعقولنا، إذْ كنا نسمعها في المذياع وفي طابور الصباح المدرسي، وفي كل مكان حتى حفظناها عن ظهر قلب .. وبعد سنين من القهر وتغير المعالم والمعاني في عصر العولمة .. هل تغير شيء؟! لعلّ الظلم والظالمين مازالوا، فهذه سُنّة الحياة. ولكن ما بال الجهاد والفداء وهما من سُنّة الحياة أيضاً؟ لعلهما تغيرا، فوجب تغيير الشطر الثاني .. والتركيز على ما استجد من أمور كانت موجودة سابقاً ولكن دون «فلاش».

أخي جاوز الظالمون المدى — وهم «سادة» خربوا البلدا
يثبتهم في الكراسي اليهود — وواشنطن أطلقتهم يدا
فعاثوا يميناً وعاثوا شمالاً — وكانوا ذيولاً بسِفل العدا

يذلّون أُمتهم ... باقتدار! وإلاّ أُزيحوا وضاعوا سدى!

- (الشِّعر السياسي) ينفرد هذا اللون الشعري بطبقة متميزة من المبدعين في كل العصور، ينقطعون له، ولا يعدونه شبراً واحداً، ويخلصون له أيما إخلاص، حتى يصبحوا من أعلامه، كأمل دنقل، ومظفر النواب، ويحيى السماوي، وأحمد مطر، ومحمود الدغيم، وغيرهم في العصر الحديث.

وقد فتحت ثورة المعلومات التي اتخذت من (الإنترنت) بوابة واسعة تطل من شرفاتها، فتحت آفاقاً واسعة أمام هذا اللون الشعري، فلا تستطع الرقابة المستبدة أو القيود المشددة أن تحول دون انتشاره وذيوعه، فقد خُصّصت مواقع شعرية كثيرة لهذا الغرض «الملعون» مثل موقع «الساحر» للشاعر أحمد مطر، وموقع «أدباء الشام»، وموقع «أبيات» للشاعر السوري محمود السيد الدغيم، الذي كرّس فيه من القصائد السياسية التي ما كان أن تقع عليها الأعين، أو تسمعها الآذان، أو تخطر على القلوب، لولا «الشبكة العنكبوتية»! فلنقتطف من ثمار هذه «الشبكة» قصيدة «حصار الوطن والمواطن» للشَّاعر الدغيم، التي يقول فيها:

لقد مَرَّتْ على الوطن السنون وحاصر كل من فيه الجنونُ
وأظلمت البلادُ، وغاب نور وجَنّ الليل وانتشر الدجون
وصار الحرُّ للأوغاد عبداً يعاقبه الجبانُ ومن يخونُ
وللجاسوس صرح مشمخّر به تيسٌ حداثيٌّ لبون
وحول الصرح حُرّاسٌ غِلاظٌ وبائعُ ذمةٍ وغدٌ خؤون
وأشراف البلاد بدار ذلٍّ وليس لمثلهم صدر حنون
لأنَّ بلادنا تحت احتلال له في كل زاوية أتون
يكرسه الرفاق بسوء فنٍّ وأشباه الرجال لهم فنون
وآباء الرفاق لهم ذيول وأبناء الرفاق لهم قرون

فخانوا الدين والأعراض حتى تكاثرت الفضائح والشجون
جميع الحاكمين قيود ذلٍّ وأوغادٌ، وزُعرانٌ، ودونُ !

هذه هي الخطوط العريضة والقسمات المميزة للشّعر السياسي .. إنها نبذة سريعة، وقليل من كثير، وغيض من فيض، وقطرة من محيط هادر، من أشكال (الشّعر السياسي) وتاريخه، وغاياته، ومراميه، وما كان من أمره في مختلف العصور.

أمّا عن أعلامه ورواده، وقضاياهم، وأحوالهم، وأزماتهم، وشئونهم وشجونهم، والقاسم المشترك فيما بينهم، ومواضع التشابه والاختلاف عندهم، ومدى نجاحهم أوْ إخفاقهم في تجاربهم الإبداعية، ودرجاتهم ومنازلهم، ومكانتهم بين يدي التاريخ ... فهذا الذي سوف نستعرضه في الفصل التالي (شعراء المعارضة)!